

د. عبد العزيز شويط - جامعة محمد الصديق بن يحيى - جيجل

المساهمات الجامعية الجزائرية في جمع وتدوين ودراسة الأغنية الشعبية الجزائرية (تجارب ومحاولات)

مقدمة

الشعر الشعبي الجزائري، ولاسيما في شكله الملحون، ومعه الأغنية الشعبية الجزائرية سواء أكانت هذه الأنواع معلومة المؤلف أم مجهولة، في حاجة ماسة إلى الجمع والتدوين. فأما الشفوي منها فيجمع عن طريق التسجيل في شرائط صوتية أو يكتب في كراسات وينقل إلى المطبعة، سواء من خلال الجهود الفردية الثقافية والعلمية الحرة التي يقوم بها أفراد مثقفون مهتمون استولى عليهم الهم المعرفي والوعي بضرورة إنقاذ هذا التراث الفولكلوري من الضياع والاضمحلال، أم من خلال الجهود الجماعية العلمية الأكاديمية من خلال فرق البحث و مخابره، أو من خلال أطروحات الماجستير والدكتوراه المنجزة والمسجلة في الجامعات الجزائرية ومراكز البحث المعتمدة، أو من خلال الكتب الأكاديمية المؤلفة، والمقالات العلمية المنشورة في الجرائد والدوريات العلمية. أو من خلال الجهود الجماعية التي تقوم بها الدوائر السياسية والثقافية الجزائرية كوزارة المجاهدين ووزارة الثقافة ووزارة التعليم العالي والبحث العلمي وحتى وزارة التربية الوطنية، وما يتبع ذلك من مديريات الثقافة والمجاهدين والمؤسسات التعليمية والتربوية.

وأما المدون منه فهو نوعان: المنشور من قبل أصحابه الشعراء الشعبيين، والذي طبع ونشر في الصحف والمجلات، فهو أحوج إلى الجمع في كتب خاصة، وأما المجموع في دواوين فالأليق أن يضم إلى بعضه حتى يؤلف ديوانا كاملا للشخص أم لشعراء منطقة ما، و حتى لشعراء الجزائر، و لما لا ؟ والثاني فهو المخطوط منه والذي يكون أحوج ما يكون إلى التحقيق والطباعة والنشر.

فإذا ما كلل كل ذلك بالتصنيف والدرس العلمي الأكاديمي المنهجهذه الأشعار الشعبية، فقد شكلت هذه الحركة محتوى ومجموعا في غاية الأهمية يسهل

على القارئ الاطلاع عليه، وعلى الباحث النهل منه، وعلى الدارس الاستفادة منه، وهو ما يمكن أن نسميه بنكا للمعرفة الشعرية، أو ذخيرة للشعر الشعبي والأغنية الشعبية الجزائرية.

هذا ولم يكن الجمع والتدوين على الدوام هو وحده الأهم في عملية العناية بالتراث الشعري الشعبي الشفوي وحتى المدون، وإنما كانت مسألة الدراسة من الأهمية بمكان، ذلك أن المفهوم تحدده الدراسة الواصفة والمحللة والمصنفة، ومن أجل ذلك اعتنى العديد من الدارسين الجزائريين بوضع التعريفات والمفاهيم لأشكال التعبير في الأدب الشعبي، وعلى رأسها الشعر الشعبي والأغنية الشعبية والشعر الملحون وحتى الزجل، ذلك أن هذه الأنواع في الجزائر وفي بلاد المغرب العربي تختلف عنها في بلاد المشرق العربي.

ولذلك سنحاول أن نستكشف رؤية الدارسين الجزائريين للشعر الشعبي والأغنية الشعبية من حيث المفهوم والخصائص ثم نطلع على جهودهم في الجمع والتصنيف والتدوين، إما من خلال أعمالهم الفردية أم أعمالهم الجماعية (الفرق والمخابر) وإما من خلال رسائل الماجستير وأطروحات الدكتوراه التي أشرفوا عليها وأنجزها طلبة في مجال الأدب الشعبي.

ولذلك سيكون مجال عملنا هاهنا منصبا حول الجهود الجزائرية في التعريف والمفهوم والخصائص وموازنة عملهم هذا بما ورد في موسوعات الفلكلور وقواميس الأدب الشعبي. ثم هذه رصد الجهود من حيث الجمع والتدوين. لعلنا بهذا الرصد للمفهوم وللخصائص وللمواد المجموعة نبشر بما يمكن أن ينجز من بنك للشعر الشعبي الجزائري ومنه الأغنية الشعبية الجزائرية.

من الضروري أن نشير إلى أن العديد من الدواوين الشعرية للشعراء الشعبيين قد طبعت و هي تضاهي في كیفها و كمها ما يطبع من شعر في الجزائر، لشعراء ماتوا واهتم بإخراج أشعارهم أصدقاؤهم وذويهم، أم لشعراء مازالوا على قيد الحياة يبدعون قد نشروا أشعارهم في دواوين خاصة، و منهم من لم يتجاوز بعملية الإخراج والإذاعة والنشر الصحف والمجلات والإلقاء في الملتقيات والمهرجانات وحفلات الأعراس والمناسبات الوطنية والدينية وحتى الأعراس والمآثم أحيانا، وهذا ما من

شأنه أن يعمل على أصحابه لإخراجه إن توفرت لهم الإمكانيات والظروف المساعدة على هذا الإخراج.

إن عملية الإنقاذ للشعر الشعبي ما تزال متواصلة مستمرة، وإن ما خفف حدة الضياع والنسيان والتهميش الشبكة العنكبوتية (الأنترنت) التي تزخر بالكثير من الأشعار الشعبية التي دونت فيها، إما بالكتابة وإما بالتسجيل الصوتي وحتى بالفيديو.

المفهوم والتعريف والخصائص

إن الاطلاع على تجارب الدول الشقيقة والصديقة ليجز لنا مدى الخطوات الجبارة التي قاموا بها في سبيل جمع التراث الشعبي المادي منه و اللامادي، حتى ضمته المجلدات، وهو ما يجعلنا ندرك ضرورة الاحتذاء بالتجارب الناجحة لجيراننا وحتى للدول السباقة إلى هذا الفعل ممن هم في الضفة الأخرى، فمثلا وفي مصر ((في عام 1993 بدأ إخراج إصدار جديد لأدلة العمل الميداني في جمع التراث الشعبي، وصدر منها حتى الآن ستة مجلدات تضم أدلة لدراسة ميادين : العادات والتقاليد الشعبية، والمعتقدات والمعارف الشعبية (جزآن)، وعادات الطعام وآداب المائدة، والثقافة المادية وأدوات العمل الزراعي، والموسيقى الشعبية)) (01) يعني هذا أن هناك إصدار قديم ما دام هذا الذي يضم ستة مجلدات إصدارا جديدا، وربما سبقته إصدارات قديمة بدل الإصدار الواحد.

نبدأ أولا بتحديد مفهوم المادة التي نشغل عليها ونأمل أن تجمع و تدون، بل ونركز هاهنا بالذات على نوع من أنواع الإبداع الشعبي الفني، ألا وهو الشعر الشعبي أو الأغنية الشعبية، ما دام الشعر من الأغاني وما دامت الأغاني من الشعر، ونتكئ في تحديد مفهوم الحيز الأكبر الذي يشملها، وهو الإبداع الشعبي قبل التطرق إلى الشعر و الأغنية، على معجم الفولكلور الذي يقول في تعريف الإبداع الشعبي عموما : ((الإبداع الشعبي FOLK FICTION مصطلح يستعمل للملكات الخلاقة التي تصدر عن شخصية فردية، و بخاصة في المجالات التي يتوسل فيها بالكلمة المجهورة أو الشفاهية. و يستعمل مصطلح الإبداع الشعبي للدلالة على الآداب الشعبية في بعض البيئات العلمية، وهو بهذه المثابة يتألف من الحكايات والأغاني والأمثال والألغاز وبعض الظواهر التمثيلية وغيرها، مما يدخل في مجال الآداب الشعبية. وفي بعض

الجامعات التي تعنى بالتراث الشعبي كراسي أستاذية للإبداع الشعبي ؛ كما هو الحال في السويد. و تسمى هذه الدراسة في بعض الجامعات الأخرى بالمصطلح " الأدب الشعبي" ((02) مما يعني أن هذه الدول قد سبقتنا بأشواط كثيرة في عملية الدرس كما فاتتنا بمراحل طويلة جدا في عملية الجمع والحفظ من الضياع.

ثم ندرج فنضيق الدائرة ووصولاً إلى الحيز الأضيق وهو الأدب الشعبي، فنجد المعجم المذكور سابقاً يقول في تعريفه : ((الأدب الشعبي FOLK LITERATURE مصطلح جديد يدل على التعبير الفني المتوسل بالكلمة، وما يصاحبها من حركة وإشارة وإيقاع ؛ تحقيقاً لوجدان جماعة في بيئة جغرافية معينة أو مرحلة محدودة من التاريخ... والأدب الشعبي جزء كبير من المآثورات الشعبية... يشمل النصوص الشفاهية، والروايات التي تنتقل من فرد إلى فرد، ومن جيل إلى جيل، ومن بيئة إلى بيئة بواسطة التلقي أو الحفظ أو التردد)) (03) مما يعني أن الكلمة في الأدب الشعبي ليست وحدها، بل تصاحبها الحركات والأصوات (الترنم) وحتى الموسيقى، لأن الأدب الشعبي في شكل الأغنية لا ينفك يتزاوج مع الموسيقى وترنيم الأصوات وحتى الرقص أحياناً. والدليل على ذلك هو ترسيخ المفهوم لهذا التزاوج والتصاحب بين الكلمة والموسيقى في الأغنية الشعبية، وهي من الأدب الشعبي أكثر منه انتماء إلى فن آخر وليكن الغناء وحتى الموسيقى. يقول معجم الفلكلور في هذا التزاوج : الأغنية الشعبية FOLK SONG هي الشعر الشعبي والموسيقى المصاحبة له اللذان تردهما الجماعات التي ينتشر أدبها بالرواية الشفوية لا بواسطة التدوين والطباعة. ويذهب أكثر الدارسين إلى أن هذه الجماعات (وهي من أهل الريف في الأصل) أقدر من غيرها على الاحتفاظ بقدر من الثقافة القديمة الصادرة من الوحدة القومية التي يؤلف هذه الجماعات جزءاً منها، وهي بذلك تفضل سكان المدن بما تقوم عليه من حضارة معقدة تتجاوز القومية إلى ما يشبه الدولية، وتتعرض لتغيرات وتقلبات سريعة في أنماط الحياة. والأغنية الشعبية بهذا المفهوم حلقة أساسية من حلقات الثقافة الشعبية التي تقابل ثقافة المدن)) (04) فظلت الموسيقى مصاحبة للشعر الشعبي لا تفارقه ليصدق على هذا الناتج الجديد اسم الأغنية، وذلك، طبعاً، من خلال الأداء الشفوي من خلال النطق أو التلفظ والترنيم بإخراج الصوت.

الأمر ذاته نجده عند الدكتور العربي دحو، حتى لنظن أن المصدر الذي أخذنا منه هو نفسه الذي يعتمد عليه جامعو الشعر الشعبي في الجزائر، وذلك حين يخوض في مسألة تعريف الأغنية الشعبية فيقول : ((إنها تغنى في الأعراس من طرف فرق غنائية هاوية، أو محترفة، وتردد من طرف المسافرين للترويج عن أنفسهم، والرعاة للتسلية، وأصحاب المهن والحرف لتنشيط ذواتهم، وتجديد عزمهم، وكذلك من طرف الأمهات، كلما يختلين بأنفسهن داخل المنزل، أو يعكفن على مناسجهن، أو يسلين أطفالهن.

وفي هذه الحالات والظروف تغنى هذه النصوص ومن ثمة تخت المصاحبة لأدائها، فالأفراد المسرين عن أنفسهم يعتمدون غالبا على أصواتهم فقط، هذه الأصوات التي تعلق وتنخفض حسب المكان الذي يوجد فيه المغني، بينما يرافق غنائها في الحفلات الرسمية كالأعراس وسائل موسيقية جلدية وقصبية، أهمها أو أشهرها على الإطلاق في المنطقة (الأوراس) أي " القصبة " و"الناي" من القصب، "البندير" و"الطار" و"الطلبل" من الجلد غير أن "الطار" و"الطلبل" و"الدبكة" قليلة الاستعمال في المنطقة من قبل)) (05) فلا يخرج العربي دحو عما وضعه المرجع السابق للأغنية الشعبية من اشتراط الموسيقى المصاحبة، ولا حتى عن ما يذهب إليه بعض الدارسين وحتى في التعريف ((إن الأغنية الشعبية هي تلك التي أبدعها فرد ما وقام المجتمع بتعديل أنماط التعبير فيها وأخضعها لوجدانه وعقله فأصبحت ملكا له" وجاء غيره ليقول" ليست بالضرورة أن تكون الأغنية الشعبية هي التي خلقها الشعب، بل تلك التي غناها وتؤدي وظائف يحتاجها المجتمع الشعبي" ثم جاء من يقول "إن الأغنية الشائعة في المجتمع الشعبي تشمل شعر وموسيقى المجتمعات الريفية التي تتناقل آدابها عن طريق الرواية الشفاهية دونما حاجة إلى تدوين)) (06) وعلى هذا الأساس لا يمكن الاطمئنان إلى خلق بنك أو ذخيرة للدراسات الشعبية في الجزائر ما دام أغلب الدارسين الجزائريين يشتركون في نفس المراجع التي أخذوا منها وحددوا من خلالها مفاهيم الشعر الشعبي و الأغنية الشعبية، بل وأخذوا منها حتى خصائص هذا الأشعار والأغاني.

حول الطابع البدوي للأغنية ومنها الشعر الشعبي يقول دحو عن أغنية الأوراس الثورية على سبيل المثال : ((لغتها في مجملها متفاحصة ونادرا ما نجد فيها دخيلا أو

محليا إقليميا لذلك تذاع في الإذاعة وتنتشر في الصحف ويهوى الناس الاستماع إليها في كل أرجاء القطر بل وجعلها تفهم عند التونسي والمغربي والليبي وفي الغالب عند كل المشاركة العرب.

وهذه اللغة نفسها عندما نفحصها ونحاول تصنيفها على أساس البنيان فإنها في الحقيقة تخدمنا أكثر مما نخدمها لأننا وجدنا مميزات خاصة لصنفين من اللغة التي تسمى بالبدوية، والحضرية فالحضارية قليلة نادرة جدا بينما البدوية هي الطاغية المسيطرة على النصوص.

معنى ذلك أن بيئة نصوص غرضنا بدوية نشأت في أرياف الأوراس وتغنى بها سكان الجبال في أيام المحن المختلفة وسجلوا فيها مآسيهم وهمومهم وكل ما يتصل بحياتهم اليومية وبعاداتهم وتقاليدهم.

ومن الطبيعي أن تكون هذه الأشعار بنوعيتها ريفية بل بدوية... (07)، ويبدو الدكتور العربي دحو متأثر بتلك المراجع حتى في مسألة بدوية الشعر الشعبي والأغنية الشعبية وريفيتهم لأننا وجدنا العديد من المنظرين العرب السابقين للأدب الشعبي يطرحون هذا الطرح، وهو السمة البدوية والريفية والقروية للشعر الشعبي والأغنية الشعبية.

تجربة الدكتور العربي دحو وشعر الأوراس الثوري وغير الثوري جامعة باتنة) للدكتور العربي دحو في البداية كتاب "بعض النماذج الوطنية في الشعر الشعبي الأوراسي خلال الثورة التحريرية" وقد طبع سنة 1986 بديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر، وهو يحتوي على مقدمة ومدخل دراسي تاريخي وبيئي ومفهومي تعريفي اصطلاحى وحتى متعلق بالخصائص، وبعدها يدخل في جمع النصوص وتدوينها ودراستها وموازنتها بنصوص شعبية من المشرق العربي.

لقد احتوى الكتاب (اعتمادا على ملحق النصوص) على حوالي 216 نص من الأشعار الشعبية، مع حدوث بعض التكرار في نصوص رويت عدة مرات بروايات فيها بعض الاختلاف. والنصوص المقطوعات تتراوح من حيث الطول والقصر بين البيت الواحد والخامسة والثلاثين بيتا (35) كما في نص "الحزب الوطني"

النموذج الثاني للعربي دحو هو كتابه "الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى بمنطقة الأوراس" في جزئين، الجزء الأول منه جمع فيه العربي

دحو منذ قصيدة واقعة مازغران ضد الإسبان وإلى أيام تأليف هذا الكتاب من قبل صاحبه العربي دحو قرابة 619 بيتا بما في ذلك أبيات قصيدة حيزية لابن قيطون، مع ملاحظة أن بعض النصوص هي من الكتاب الأول "بعض النماذج الوطنية في الشعر الشعبي الأوراسي خلال الثورة التحريرية" (08). والحقيقة أن هذا الكتاب - من حيث الدراسة وضبط المفاهيم - هو الكتاب الأهم من كتب العربي دحو، ذلك أنه حدد مفاهيم الشعر الشعبي من خلال حديثه عن القصيدة الشعبية في الجزائر أصولها وتطورها، و حديثه عن التفرقة بين مصطلحات الزجل والملحون والشعبي وأيضا من خلال حديثه عن تسميات الشعراء لشعرهم... الخ

أحيانا تتكرر بعض الأبيات ضمن الكتاب الواحد، وهذا قليل تحتاج إليه الدراسة المضمونية تارة والدراسة الفنية الجمالية تارة أخرى، وقد يكرر ثالثة للدراسة العروضية مثلا، أما التكرار الحاصل بكثرة فهي النصوص من كتاب لآخر ما دام العربي دحو مرة يجمع وأخرى يدرس و ثالثة يشكل ديوانا عاما يلم فيه كل ما جمه على مراحل. هذا ولم يتسن لي الإطلاع على الجزء الثاني من هذا الكتاب (الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى بمنطقة الأوراس)، ويبدو أن أشعاره هو أيضا قد ضمها "ديوان الشعر الشعبي عن الثورة التحريرية بالعربية والأمازيغية (الشاوية)"

الكتاب الثالث (وهو الأهم) في تجربة الأستاذ الدكتور العربي دحو تتمثل في كتابه "ديوان الشعر الشعبي عن الثورة التحريرية بالعربية والأمازيغية (الشاوية)" (09) والذي جمع فيه حوالي 586 قصيدة شعبية عن الثورة يضاف إليها مجموعة من الأشعار قيلت بالشاوية ويترجمها لنا العربي دحو والمقدرة بحوالي 59 قصيدة ليكون المجموع حوالي 643 قصيدة موزعة على 275 صفحة من القطع المتوسط. والملاحظ أن العربي دحو قد لم ما جمعه ودونه ودرسه في جميع كتبه السابقة وزاد عليه نصوصا أخرى جمعها ليضمونها هذا الديوان العظيم من الأشعار الشعبية، وكما أسلفنا تتراوح هذه الأشعار بين الطول والقصر من البيت إلى عشرات الأبيات.

والحقيقة أن هذا الجهد لا يقدر بثمن، لا شيء إلا أن هذه الأشعار مجهولة القائل، ليست كأشعار المتوفين فينشرها ذوي المتوفى وأصحابه ولا كأشعار الأحياء فيقومون بنشرها وتسجيلها بأنفسهم، فلقد جمعها العربي دحو من أفواه الشيوخ

والعجائز وكبار السن ممن مات الكثير منهم وذهبت بعض النصوص إلى طي النسيان في صدره. وللتذكير فإن هذا الديوان قد صدر عن دار بونة للبحوث والدراسات، بغضبة الجزائر في طبعته الثانية سنة 2012. وقد فرغ صاحبه من تدوينه سنة 2006.

هذا من حيث الجمع، أما من حيث الدراسة فالرجوع إلى ما بين أيدينا من كتبه نلاحظ - وكما أسلفنا - ذلك النقل من مراجع الأدب الشعبي والفلكلور العربي وحتى الغربي، ومع ذلك فللرجل إضافات تتعلق بالبيئة الجزائرية المختلفة عن تلك البيئات مثلما حدثنا عن الطابع الديني الإسلامي لشعر المقاومة والثورة الشعبي الجزائري.

تجربة الأستاذ الدكتور التلي بن الشيخ (الدراسة و الجمع و التدوين)

الدكتور التلي بن الشيخ في كتابيه "منطلقات التفكير في الأدب الشعبي" و"دراسات في الأدب الشعبي" والصادر عن المؤسسة الوطنية للكتاب سنة 1990 وسنة 1983 على التوالي.

من حيث المفاهيم نجد ذلك واضحا في الكتاب الأول "منطلقات التفكير في الأدب الشعبي" في الفصول الأولى من الكتاب "منطلقات الشعر الشعبي الجزائري"، ظهور الشعر الشعبي في المغرب العربي إلى غيرها من عناوين الفصول و منها قوله : ((يتميز الشعر الشعبي الجزائري بالروح الوطنية، والدفاع عن الحرية والكرامة... يمكن القول بأن منطلقات الشعر الشعبي الجزائري منطلقات واقعية نابعة عن آلام وجراح الشعب الجزائري، ليس فيها من الخيال والتصور إلا ما يدعم الواقع الاجتماعي، ويعطي الصورة الشعرية بعدها ووقعها في نفس القارئ...)) (10) فهذه الأفكار التي يطرحها قد طرحها غيره من الجزائريين ومن العرب ومن الغربيين أيضا.

كما يلمس الدكتور التلي بن الشيخ حقيقة الشعر الشعبي من خصائصه فيقول : ((يصور الشعر الشعبي الجزائري ملامح الحياة الاجتماعية والسياسية بصورة يغلب عليها طابع التعميم، والنزوع الأخلاقي، وتطغى على رؤية الشاعر الشعبي روح دينية صادقة هي أقرب إلى المثالية، منها إلى محاولة إدراك الأسباب، وفهم الظروف الاجتماعية المتداخلة التي تتطافر على تشكيل الظواهر العامة في حياة المجتمعات.

إن الهدف من محاولة الدراسة الشعبية، هو أن نتعرف على رؤية بعض مشاهير الشعر الشعبي وما بذلوه من عطاء وجهد في شتى مجالات الحياة الثقافية والفكرية، و أن نعرف القارئ الذي لم تتح له ظروف الدراسة أن يطلع على هذا النوع من التفكير الشعبي حتى يمكنه أن يحكم على الشعر الشعبي حكما صحيحا، أو قريبا من الصحة، فلا يبالغ في الإطراء والتمجيد وتحميل الشاعر الشعبي ما ليس في استطاعته. وحتى لا يسرف في التقليل من أهمية الإبداعات الشعبية إلى درجة الاحتقار)) (11) وهو ذاته تقريبا ما مر بنا عند دحو وعند معجم الفولكلور وعند الكثير ممن تطرقوا إلى خصائص الشعر الشعبي.

هذا ويمكن الاطمئنان إلى أن التلي بن الشيخ قد ضمن دراسته هذه الكثير من أبيات الشعر الشعبي منذ المطلع الهلالي :

غربوك الجمال يا حفصة
من بلد بعيد
من سجلماصة ومن قفصة
وبلاد الجريد(12)

وذلك من خلال دور الشعر الشعبي في ثورة التحرير بجميع مراحلها التاريخية وأحداثها الجسيمة، وهو ذات الموضوع الذي خاض فيه العربي دحو بقوة يضيف إليها التلي موضوعات جديدة وهي : (أغراض الشعر الشعبي الجزائري) و(الإقليمية في الشعر الشعبي) و"صورة الغزل في الشعر الشعبي" (تطور نظرة الشاعر الشعبي) و(الجديد في الشعر الشعبي) وهو الشعر الشعبي مجهول القائل دائما، ويورد لنا 231 بيتا من الشعر الشعبي مجهول القائل يعلق عليها ويوضح معانيها ويشرح ألفاظها الغربية في هامش الصفحات.

الكتاب الثاني للدكتور التلي بن الشيخ وهو "دراسات في الأدب الشعبي" وقد تناول صاحبه فيه الشعر الشعبي فقط دون غيره من أشكال التعبير في الأدب الشعبي، على العكس من الكتاب الأول الذي يدرس فيه منطلقات القصة والمثل الشعبيين، هاهنا في هذا الكتاب دراسة للموضوعات الوطنية والغزلية لدى خمسة من الشعراء الشعبيين الجزائريين وهم على التوالي : سعيد بن عبد الله المنداسي ومصطفى بن إبراهيم والأخضر بن خلوف ومحمد بن عزوز الخالدي والشيخ بن يوسف، فإلى جانب تحليل الأشعار واستخراج المعاني الوطنية والغزلية وبعض الأغراض كالممدح والعتاب والتوسل والوعظ والتدين فيها.

لكن الذي يعيننا هاهنا أن هذه الأشعار معلومة القائل، وليست كالأشعار التي وردت في الكتاب الأول، وهي مأخوذة إما من مجلة آمال أو من دواوين الشعراء أنفسهم كديوان المنداسي والكنز المكنون في الشعر الملحون لمحمد قاضي وكتاب مصطفى بن براهيم لعبد القادر عزة وغيرها من المصادر والمراجع المتضمنة هذا الشعر المدون والمعلوم قائله، غير أن نظرة فاحصة لمحتويات الدراسة من الأشعار الشعبية نجد أنه قد أورد للمنداسي 137 بيتا لمجموعة من الأغراض والمضامين، ولابن خلوفا 145 بيتا لمجموعة من الأغراض والمضامين وأورد لمصطفى بن إبراهيم 199 بيتا لمجموعة من الأغراض والمضامين. كما أورد للخالدي 41 بيتا لمجموعة من المضامين وأورد لابن عزوز 65 بيتا ولابن يوسف 118 بيتا لمجموعة من الأغراض والمضامين أيضا. ليكون مجموع ما ضمنه الدكتور التلي بن الشيخ كتابه للشعراء الخمسة حوالي 705 بيتا من الشعر للعديد من الأغراض والمضامين.

هذا عدا ما يمكن ان يحتويه كتاب التلي بن الشيخ الثالث، وهو "دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة" طبع الشركة الوطنية للكتاب بالجزائر سنة 1981.

تجربة الأستاذ الدكتور عبد الحميد بورايو

في كتاب الأستاذ الدكتور عبد الحميد بورايو "الأدب الشعبي الجزائري" والصادر عن دار القصة بالجزائر يتحدث فيه صاحبه عن الأدب الشعبي الجزائري عموما بما في ذلك الشعر الشعبي من خلال تاريخ العناية بالثقافة الشعبية الجزائرية في المرحلة الاستعمارية وحتى بعد الإستقلال، ومنها تاريخ العناية بالشعر الشعبي من خلال الحديث عن حركة نشر المدونات الشعرية. ولذلك فمداخل الكتاب تأريخية أكثر منها مفهومية، وإن كانت لا تعدم الحديث عن المفهوم، يقول عبد الحميد بورايو عن بدايات حركة التدوين في الشعر الشعبي الجزائري، والتي هي بالطبع في المرحلة الاستعمارية: ((تعود حركة تدوين نماذج من الشعر الشعبي الجزائري ونشره موثقا والتعليق عليه وتقديم انطباعات حول طبيعته إلى منتصف القرن التاسع عشر: أين نجد نصوصا من هذا الشعر قد جمعت ونشرت مترجمة إلى اللغة الفرنسية. نغثر عليها ففي الدوريات (خاصة في المجلة الإفريقية) أو في بعض المؤلفات)) (13) وهذا الكلام لا يعبر عن رأي بقدر ما يعبر عن حقيقة اتفق بشأنها الدارسون وعززتها الشواهد المادية المتوفرة في شكل مطبوعات موجودة في المكتبات.

لقد رصدنا لعبد الحميد بو رايب في كتابه هذا حوالي 85 بيتا من الشعر الذي يسميه هو الأغاني والتي يؤديها القوال، في أربع نماذج مختارة. يضاف إليها نموذج خامس معلوم القائل وهو للشاعر الشعبي قويدر بن سي محمد بن فرحات من قصر البخاري في رثاء زوجته "العلوانية" مكون من عشرة 10 أبيات في الرثاء، ليصبح مجموع ما ضمنه عبد الحميد بورايب 95 بيتا من الشعر الشعبي. وليس هذه هي فقط إسهامات الأستاذ الدكتور عبد الحميد بورايب وإنما نضيف إليه إشرافه على العديد من أطروحات الدكتوراه ورسائل ومذكرات الماجستير في الأدب الشعبي الجزائري ومنه الشعر الشعبي الجزائري، كما رأينا في مسألة إشرافه على الطالبة نعيمة العقريبي بحثها المعنون بـ "قصيدة حيزية لمحمد بن قيطون البوزيدي - دراسة تحليلية -" وإن كانت طبقت على مدونة معلومة القائل وهي قصيدة مشهورة ومدونة يتضمنها ديوان ابن قيطون.

تجربة جامعة قسنطينة وأطروحة الدكتور عبد القادر نطور وتجربة محمد عيلان

من خلال التسجيل في الدراسات العليا (ماجستير أو دكتوراه) ومهما كانت مسابقات تخصص الأدب الشعبي فتحت أم لم تفتح، فقد سجل العديد من الطلبة في تخصص الأدب الشعبي بجامعة منتوري قسنطينة سواء الماجستير أم الدكتوراه، ويمكن أخذ نموذج لرسالة الدكتور عبد القادر نطور، وقبلها أطروحة الأستاذ الدكتور محمد عيلان. والتي احتضنت عملهما جامعة منتوري قسنطينة. يضاف إليها الكثير من البحوث المسجلة والمناقشة في هذه الجامعة.

تجربة جامعة تلمسان و ما تمخض عنها من رسائل (نموذج واحد)

اخترت من جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان مذكرة الماجستير الطالب "شقرون غوتي" (14) والتي أشرف عليها الأستاذ الدكتور شايف عكاشة والأستاذ الدكتور محمد سعيدي، والمعنونة بـ (الأغنية البدوية الثورية بين فترتي الثورة والاستقلال "1954 - 1962" منطقة وادي الشوالي - نموذجا - جمع ودراسة) بقسم الثقافة الشعبية لإعطاء صورة عن عملية الجمع فيما يتعلق بالأغنية الشعبية أو الشعر الشعبي. وهذا القسم متخصص في الثقافة الشعبية إلى جانب قسم اللغة والأدب العربي، وهي التجربة شبه الفريدة في الجزائر، والتي تجعل قسما خاصا بالثقافة الشعبية ومنها الأدب الشعبي.

بعد طرق مسألة تحديد المفاهيم وضبط التعريفات فيما يتعلق بالتسمية وما يقاربها كالبدوية والريفية والمحلية والتقليدية والفولكلورية والشعبية والوهرانية . هذه المذكرة أهم ما فيها فيما يتعلق بالأغنية التركيز. على الجانب الموسيقي في الأغنية وما يصاحبها من آلات، كما ركزت قبل ذلك على خصائص الأغنية الشعبية كاللغة والطبوع والصورة الفنية والصورة البلاغية، أضف إلى ذلك ما يتعلق بالرقص المصاحب للأغنية واللباس الذي يرتديه الراقصون والراقصات. (15) ثم انتقل البحث إلى تحديد المضامين المعالجة من قبل الأغنية الشعبية الجزائرية في الفترة المختارة.

فيما يتعلق بالجمع أفادنا ملحق الرسالة إفادة كبيرة في اختصار الجهد والوقت وفيه ثلاثة عشر 13 قصيدة أو نصا من الشعر الشعبي البدوي، وهو ما يقع في 414 بيت شعري موزعا على هذه القصائد. وهذه القصائد معلومة القائل، أو على الأقل المداح لأن في البحث قائمة بأسماء الشعراء الذين قالوا هذه القصائد، وأخرى بأسماء المغنين الذين سجلوا هذه القصائد في أسطوانات.

جامعنا تيزي وزو ومسيلة

إن مجرد إطلالة على قوائم الطلبة المسجلين في الماجستير أو الدكتوراه يجد العديد منها في الأدب الشعبي ومنه الشعر الشعبي، بل ونوقشت هذه الرسائل والمذكرات وهي في رفوف المكتبات الجامعية، فيكفي التعرف على مذكرة نوقشت للطلبة حياة بوخلط بعنوان "صورة المرأة في الشعر الشعبي الجزائري. شعر البشير قذيفة أنموذجا" إشراف الدكتور علي بولنوار، ورسالة للدكتوراه مسجلة للطلبة سويسية نصيرة بعنوان "الشعر الشعبي بمنطقة مسيلة - دراسة جمالية" إشراف الدكتور علي بولنوار أيضا، لنستدل على حجم العناية بالأدب الشعبي في جامعة محمد بوضياف بالمسيلة.

أما جامعة مولود معمري تيزي وزو فقد عثرت على مذكرة للماجستير للطلبة يوسف العارفي بعنوان "الشعر الشعبي في منطقة سور الغزلان - جمع و دراسة" إشراف الدكتور خالد عيقون(16)، وهي المذكرة التي سنتتبع عملية الجمع معها، كنموذج عن هاتين الجامعتين.

وإذا كان الباحث يقدم لمذكرته بمدخل حول تعريف الأغنية الشعبية وخاصة مختلف تسمياتها، ثم يتطرق إلى نشأتها خصائصها، كما فعل جميع

الباحثون الذين تناولناهم قبله، غير أنه يخلص إلى جمع الأشعار الشعبية في هذه المنطقة ويدرسها دراسة مزدوجة : فنية جمالية ومضمونية. ولقد تم الاعتماد على ملحق رسالته المسمى بالمدونة لإحصاء عدد القصائد وعدد الأبيات التي ضمنها بحثه حتى لا نقول جمعها لأنه جمعها من الأشرطة والمدونات المكتوبة وحتى من الإذاعة والتلفزيون الجزائري، ولذلك فقد ضمّن هذه المدونة حوالي الخمسين 50 قصيدة ومقطوعة مكونة من بيت واحد إلى ما يزيد عن العشرين بيتا لشعراء وشاعرات من المنطقة يصطلح على تسميتهم بالشيوخ.

تجربة الإثنا عشر طالبا في جيجل في الجمع والتدوين والدراسة

التجربة في جيجل من خلال مشروع الدراسات العليا (الماجستير) في الأدب الشعبي الجزائري تكون وتككل بإثني عشر 12 بحث للماجستير. فبينما كان اتجه ثلاث طلبة إلى المثل الشعبي وهم : الطالب عبد الله فعرور ببحثه المعنون بـ(الدلالات الاجتماعية والاقتصادية في المثل الشعبي الجزائري) بإشرافنا. والطالب عبد الحق بورصاص ببحثه المعنون بـ(صورة المرأة من خلال الأمثال الشعبية الجزائرية دراسة ميدانية تحليلية) أيضا بإشرافنا. والطالبة زينب قريمس الأمثال الشعبية بمنطقة جيجل جمعا ودراسة بإشراف الأستاذ الدكتور عيسى لحيلج، اتجه طالب آخر إلى الخطاب النقدي وهو عمار بحاير ببحثه المعنون بـ(الخطاب النقدي في الدراسات الشعبية الجزائرية الحديثة) أيضا بإشرافنا.

كما اتجهت طالبة إلى البحث عن المؤثرات الشعبية في النص الفصيح وبالضبط النص السردي الروائي في شكل عنوان (توظيف التراث في الرواية الجزائرية المعاصرة تلك المحبة وخطوة في الجسد أنموذجا) وهي الطالبة رحيمة بوغريرة بإشرافنا.

واتجه طالب إلى دراسة العادات والتقاليد وهو الطالب الطيب بوجمعة بإشراف الأستاذ الدكتور عبد الحميد بوكعباش، واتجه طالب آخر إلى دراسة الخطاب الأدبي عموما نثره وشعره بمذكرة عنوانها (الخطاب الأدبي الشعبي دراسة في الشعرية والوصف) وهو الطالب محمد بوكروح بإشراف الأستاذ الدكتور عبد الحميد بوكعباش، نجد أربع طلبة اتجهوا إلى الشعر الشعبي الجزائري وهم :

الطالب السعيد باشي ببحثه المعنون بـ(القصيدة الشعبية البدوية عند شعراء بني ورجلان) بإشرافنا والطالبة أقيس لمياء ببحثها المعنون بـ(الأغنية الشعبية بولاية جيجل، دراسة ميدانية، جمع، تدوين، تحليل) بإشراف الأستاذ الدكتور بوكعباش عبد الحميد، والطالبة يوسف مرية ببحثها المعنون بـ(الشعر الشعبي في منطقة تبسة موضوعاته وخصائصه) إشراف الأستاذ الدكتور لحيلجعي، والطالب رشيد جقريف ببحثه المعنون بـ(تجليات الآخر وتمظهراته في الأغنية الشعبية الجزائرية) بإشرافنا، والطالبة بوغريرة دليلا ببحثها المعنون بـ(الأغنية الشعبية الثورية في منطقة تاكسنة من 1954 - 1962 دراسة مضمونية) أيضا بإشرافنا.

وسأختار للتمثيل على عملية الجمع، ورغبة في عدم التناول، مثالا واحدا وهو هذه المذكرة الأخيرة بإشرافي.

وإذا كانت الطالبة قد حددت في بداية البحث المفاهيم النظرية التي تشترك في مراجعتها مع جميع الرسائل والمذكرات التي تناولناها بالوصف، وخاصة النشأة والتطور والتسميات والخصائص وحتى طريقة الدراسة الفنية والمضمونية، غير أن المصادر المعتمد عليها مختلفة، على الأقل لأن الرواة والحفظة مختلفون تماما، لأن المنطقة أصلا مختلفة. مختلفة بالنسبة للمذكرات التي تتجز ويكون ميدان بحثها على الأقل خارج منطقة القبائل الصغرى : سكيكدة وجيجل وميلة، أما مذكرة زميلتها أقيس لامية مثلا فهي تشترك معها في نفس النصوص تقريبا لأن منطقة الجمع واحدة، وما يقال عن أقيس لامية يقال حتى على عمل الدكتور عبد القادر تطور للدكتوراه أو للماجستير لأنه أيضا يمثل امتدادا لذات المنطقة أو ميدان الجمع والتدوين. وسأنتقل مباشرة إلى ملحقها الذي جعلته للمدون المجموعة التي درستها في الفصول، وقد تضمن ملحقها هذا مائة وعشرين 120 نصا، وتوزع هذه النصوص الأغاني ما بين البيت الواحد 01 كما في نص : "ريوشالفرماسة يا سعدي انطالقو الحباسة" والستة والستين 66 بيتا كما رأينا مع قصيدة احمد الفن. ولذلك كان عدد الأبيات الشعرية التي جمعتها الطالبة من منطقة تاكسنة حوالي : 1219 بيتا(17)، مع حساب اللازمة المتكررة في القصيدة عدة مرات وحتى التكرار الملاحظ في بعض القصائد والتكرار حتى في القصائد مع بعض الاختلافات الناجم عن تعدد الروايات كما رأينا مع مجموعات الدكتور العربي دحو.

خاتمة

إن ما يمكن أن يلمس خيطه من إنشاء ذخيرة شعرية شعبية، لا تدخل في نطاقه المدونات معلومة القائل والمحفوظة في المخطوطات المدونة وحتى المطبوعة منها، ذلك أن هذه النصوص - نسبيا - لا تتعرض لقدر كبير من الضياع لأنه وكما قيل العلم صيد والكتابة قيد، فإن لم تطبع وتنتشر في كتب ومجلات وأشرطة مسموعة فهي على صفحات التواصل الاجتماعي مقروءة ومسموعة، وحتى في الشبكة العنكبوتية، وأما ما نسعى إلى جمعه في شكل ذخيرة أو بنك فهي الأشعار التي يحفظها الحفاظ والتي إن ذهبوا ذهب معهم، وهي مجهولة القائل.

لم نركز كثيرا على ذخيرة في المفاهيم والتحليل، لأن الدراسات تقريبا تشترك في المراجع التي أخذت منها، والمناهج المطبقة نفسها من باحث إلى آخر سياقية أكانت أم نصانية، وإنما ركزنا أكثر على الإحصاء والحساب للنصوص المجموعة عند جميع العينات التي تناولناها.

إن الوعي بضرورة الجمع كائن عند النخب الجزائرية الأكاديمية، وإلا لما رأينا هذا الكم من البحوث المنجزة، وما ذكرناه على سبيل المثال فقط لا الحصر، لأن عد ذلك من عمل فرق تبدل جهدا جبارا، بل وهناك فرق بحث تعمل في الموضوع ذاته جمعا للأغنية الشعبية ودراسة لها على مستوى cnepru، وPNR أضف إلى ذلك مخابر البحث المعتمدة في ذات المجال. وكل ذلك دليل الوعي بأهمية الجمع و الدراسة.

الهوامش

- 01- محمد الجوهري و آخران : الإنتاج العربي في علم الفولكلور، قائمة ببلبيوجرافية، مركز البحوث و الدراسات الاجتماعية، كلية الآداب جامعة القاهرة، مصر، ط 01، 2000، ص : 7.
- 02- عبد الحميد يونس : معجم الفلكلور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة مصر، د ط، 2009، ص : 11.
- 03- عبد الحميد يونس : معجم الفلكلور ، ص 49.
- 04- عبد الحميد يونس : معجم الفلكلور ، ص 86.
- 05- العربي دحو : بعض النماذج الوطنية في الشعر الشعبي الأوراسي خلال الثورة التحريرية، دراسة تاريخية مقارنة في نصوص الشعر الشعبي الأوراسي وأشعار بعض الأقطار العربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ط، 1986، ص: 41.
- 06- لطفي الخوري : في علم التراث الشعبي، منشورات وزارة الثقافة و الفنون، الجمهورية العراقية، د ط، 1979، ص 16.
- 07- العربي دحو : بعض النماذج الوطنية في الشعر الشعبي الأوراسي خلال الثورة التحريرية، ص : 40.
- 08- العربي دحو : الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى بمنطقة الأوراس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د ط، 1989، ج 01.
- 09- العربي دحو : ديوان الشعر الشعبي عن الثورة التحريرية بالعربية والأمازيغية (الشاوية)، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة، الجزائر ط 02، 2012.
- 10- التلي بن الشيخ : منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د ط، 1990، ص : 60.
- 11- التلي بن الشيخ : دراسات في الأدب الشعبي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د ط د ت، دراسات، ص : 05.
- 12- التلي بن الشيخ : منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري، ص : 26.
- 13- عبد الحميد بو راو : الأدب الشعبي الجزائري، دار القصبة، الجزائر، د ط، 2007، ص: 37.
- 14- شقرون غوتي : (الأغنية البدوية الثورية بين فترتي الثورة والاستقلال " 1954 - 1962" منطقة وادي الشوالي - نموذجا - جمع ودراسة) إشراف الأستاذ الدكتور شايف عكاشة والأستاذ الدكتور محمد سعيد مذكرة ماجستير مخطوطة، قسم الثقافة الشعبية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2004 / 2005.

- 15- شقرون غوتي : (الأغنية البدوية الثورية بين فترتي الثورة والاستقلال" 1954 – 962 " منطقة وادي الشوالي – نموذجا – جمع ودراسة) الملحق.
- 16 - يوسف العارفي: الشعر الشعبي في منطقة سور الغزلان - دراسة أثوغرافية" إشراف الدكتور خالد عيقون، مذكرة ماجستير مخطوطة، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، 2012.
- 17- دليلا بوغريرة : الأغنية الشعبية الثورية في منطقة تاكسانة من 1954- 1962 دراسة مضمونية، مذكرة ماجستير مخطوطة، إشراف د عبد العزيز شويط، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد الصديق بن يحي جيجل، 2013/2014.

قائمة المصادر والمراجع

- 01- عبد الحميد يونس : معجم الفلكلور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة مصر، د ط، 2009.
- 02- العربي دحو : بعض النماذج الوطنية في الشعر الشعبي الأوراسي خلال الثورة التحريرية، دراسة تاريخية مقارنة في نصوص الشعر الشعبي الأوراسي وأشعار بعض الأقطار العربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ط، 1986.
- 03- العربي دحو : الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى بمنطقة الأوراس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د ط، 1989، ج 01.
- 04- العربي دحو : ديوان الشعر الشعبي عن الثورة التحريرية بالعربية والأمازيغية (الشاوية)، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة، الجزائر ط 02، 2012.
- 05- التلي بن الشيخ : منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د ط، 1990.
- 06- التلي بن الشيخ : دراسات في الأدب الشعبي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د ط، د ت.
- 07- عبد الحميد بو راو : الأدب الشعبي الجزائري، دار القصة، الجزائر، د ط، 2007.
- 08 - شقرون غوتي : (الأغنية البدوية الثورية بين فترتي الثورة والاستقلال" 1954 – 1962 " منطقة وادي الشوالي – نموذجا – جمع ودراسة) إشراف الأستاذ الدكتور شايف عكاشة والأستاذ الدكتور محمد سعدي مذكرة ماجستير مخطوطة، قسم الثقافة الشعبية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2004/2005.
- 09 - يوسف العارفي: الشعر الشعبي في منطقة سور الغزلان - دراسة أثوغرافية" إشراف الدكتور خالد عيقون، مذكرة ماجستير مخطوطة، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، 2012.
- 10- دليلا بوغريرة : الأغنية الشعبية الثورية في منطقة تاكسانة من 1954- 1962 دراسة مضمونية، مذكرة ماجستير مخطوطة، إشراف د عبد العزيز شويط، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد الصديق بن يحي جيجل، 2013/2014.

- 11 - لطفي الخوري : في علم التراث الشعبي، منشورات وزارة الثقافة والفنون، الجمهورية العراقية، د ط، 1979.
- 12- محمد الجوهري وآخران : الإنتاج العربي في علم الفولكلور، قائمة بيبليوجرافية، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، كلية الآداب جامعة القاهرة، مصر، ط 01، 2000.